الخـاتمــة

obeikandl.com

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وعلى راحة توفيقه تأتي البركات، ومن فيض إلهامه نلتمس الرشاد، وبمحض إنعامه يكون السداد.

والصلاة والسلام على النبيّ العربي القرشيّ وعلى آله الكرام، وأتباعه مصابيح الظلام.

وبعد ...

فهل آن للقلم أنْ يستريح من المكابدات المتلاحقة والعناءات المتسابقة، أو أنَّه كفرس المتنبِّي يضرُّ بجسمه طول الجمام، ويتعب بالإناخة والمقام؟

لا شكَّ أنَّ أبا الطيب قد بثَّ فيه تلك الروح المعذَّبة، التي تفرُّ من نَصَبٍ إلى نَصَب، وهنا ظنَّ الناس به الاستراحة، فإذا به يعاود السُّرى في غابة ما حبَّر وغيابة ما سطَّر خلال هذه الرحلة المضنية، ليضع بين يديْ القارئ خلاصة بحثه، وأهم النتائج التي توصل إليها - **وأبرز توصيات الباحث هي:**

(1) أنَّ جراثيم التشرذم والضياع التي سقطت بالأمة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجريّ إلى الدرك الأسفل من الانحدار السياسيّ المريض، وذلك الصدع الاجتماعي الذي استحال أُخدودًا يقصم المجتمع قد استحالا إلى مُخَصِّبات قوية للعلم والثقافة، فوصل العلم إلى أَوَجِّ تألقه، وتفجَّر نهر الإبداع بالعذب الزُّلال من العطاء الفكريّ، واتَّقدت جذوة الثقافة لتروي بنورها كل متعطِّش، وآتت شجرة المعرفة أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها.

(2) أنَّ أبا الفتح عثمان بن جنِّي قد وُلِدَ عام 302هـ؛ على خلاف ما قال به أكثر المؤرخين في القديم والحديث، لأنَّ الآراء الأخرى وراءها من الثغرات ما يشوِّش معالم حياة الرجل تشويشًا جارحًا، ويزرع بذور التناقض بين تضاريس الخريطة الذاتيَّة لحياة الرجل.

obeikandl.com

(3) أنَّ المفتاح الفكري لعقلية أبى الفتح هو الحرية الفكرية التي تأبَى التبعية المريضة، وتنكر الانسياق الأعمى وراء الآخرين، وإنَّما تتبيَّن مواقع أقدامها، ثمَّ تنطلق – مع تقديسها للتراث واحترامها للسَّلف– نحو كلِّ ما يطلق يد الإرادة من إسار التبعيَّة السياسيَّة أو الفقهيَّة أو النحويَّة، مُنَدِّدة بكل ما من شأنه أن يغتال شلاّلات الإبداع والبكارة في نفس المفكر الحُرّ.

(4) لم يكن الأصل الروميّ الذي نبتت منه شجرة أبى الفتح داعيًا له لأنْ يسبح في المياه الآسنة للشعوبيَّة البغيضة، بل ظل الرجل على ولائه للعرب، وحبه للعربيَّة حتى الثُّمالة، وهذا هو ما قلَّل من أثر ذلك الأصل الرومي في تكوين شخصية الرجل الناقدة، فاقتصر ذلك على غرس حرية الرأي، وتمجيد العقل، وتفجير طاقات الجدل والفلسفة، وقوة الحُجَّة التي تقطع الطريق أمام الخصم، وهى سمة في كلِّ مؤلفاته أجلى من ذكاء.

(5) لم يكن اتجاه ابن جنِّي شطر النحو والتصريف واللغة سببًا من أسباب ضمور المَلَكَة النقديَّة لديه، بل أعطاه التمكُّن اللغويّ قدرةً على فتح ممالك النص، ومدّه بجناحين يحلِّق بهما في آفاق الكلمة، وأعطاه الشفرات التي تمكِّنه من اقتحام الحصون المطلسمة دون خوف أو وجل، فتعانقت في تحليلاته الرائعة المَلَكَة اللغوية والحس النقدي تعانقًا حميمًا يجعل المتلقي يحس بنبض النص وحرارته إحساسًا متوازنًا دقيقًا.

(6) كانت صحبة ابن جنِّي للمتنبِّي – تلك التي نمت في حلب، وترعرعت في بغداد، وتمخضت عن زيارات بشيراز – أهمَّ سبب من أسباب اتجاهه القويّ نحو شعر المتنبِّي دفاعًا عنه وتفسيرًا له، فكان شرحه أجلَّ الشروح، وأقربها إلى نفس الشاعر الحاضر شخصًا ثم روحًا أمام عينيْ ابن جنِّي، وأجمعها لتفسيرات الشاعر لشعره.

(7) عاش ابن جنِّي في الحقبة التي وصلت إلى ذروة الاهتمام بتحليل الشعر، فاستحالت شروحه إلى موسوعات لغويَّة تحفل بشتَّى المسائل والمعارف التي ثقَّف بها أبو الفتح عقله الموسوعيّ.

(8) تعامل ابن جنِّي في شروحه للشعر- بداية بشعر المتنبِّي، ومرورًا بأشعار الهذليين، وأبيات الحماسة، وأرجوزة أبى نوَّاس، ناهيك عن قصائد للشريف الرضيّ، وبيت لعضد الدولة - تعامل الناقد الفاهم القادر على تحليل النص واستنباط قضاياه، والمتمكِّن من السباحة مع وضدَّ كلِّ تيار؛ سباحةً تَنُمُّ عن مهارة وتألُّق، لولا ما عابها من كثرة الاستطراد الذي يوشك أن يستبدَّ بفكر المتلقِّي ويتحول به بعيدًا عن النص إلى ما حول النص من معارف ومسائل وقضايا.

(9) يقف أبو الفتح ابن جنِّي صلبًا كلَّ الصلابة أمام من حاولوا التشكيك في رواياته، واتهموه بوضع تفسيرات ثمَّ نحلها الشاعر، فإنَّ هذه التهم لم تقف على أساس صلب من الحق، وإنَّما كانت رؤى لأصحابها، لأنَّهم فهموا بعض الأبيات على غير الوجه الذي يريده الشاعر، فلم يجدوا إلا الاتهام المريض بالنحل والتزوير، على الرغم مما يتحلَّى به ابن جنِّي من ثقة وصدق.

(10) يُعَدُّ شرح ابن جنِّي لديوان المتنبِّي أجلَّ الشروح وأنفسها جميعًا، لأنَّه أول الشروح، فافترع به ابن جنِّي بكرًا لم تطمث، ولأنَّه قرأ الديوان على الشاعر مشافهة، ولأنَّه يتضمن جُل تفسيرات المتنبِّي لشعره، ولأنَّه أول من رصد ظواهر مهمَّة في شعر المتنبِّي؛ مثل: ظاهرة المعاني المكرَّرة، والجرأة النفسية، والكافوريَّات... وهى ظواهر نالت من عناية الباحثين جهودًا كثيرة.

(11) كان لشرح ابن جنِّي صدى رنَّان في كل الشروح التي آتت من بعده، وجُلِّ الدراسات التي دارت في فلك شعر المتنبِّي، فوقف الجميع على هذا المعين ينهلون منه ويعلُّون، حتى رُووا، على الرغم من اجتراء بعضهم على عضِّ اليد التي امتدت إليهم لدى مغامرتهم بالسباحة في محيط المتنبِّي.

(12) مسَّت الدراسات اللغوية لابن جنِّي النقد الأدبيّ من خلال المعالجة الفاهمة للنصوص الشعرية بها وشرحها شرحًا فنيًّا عاليًا، ومن خلال الدراسة العروضيَّة المبثوثة بكثرة

في ثنايا كتبه، ناهيك عن الشذرات النقديَّة الفاهمة التي تألقت في تلك الدراسات، والتي تنتظر من يجمعها في عقد قضاياها التي تنتمي إليها.

(13) طرق ابن جنِّي من خلال هذا التراث الضخم جُلَّ قضايا النقد الأدبيّ، بداية بالرواية وتحقيق النصوص التي حرص على تنقيتها من كل دخيل، وانطلاقًا نحو السلامة اللغوية التي حرص على أن يدرأ فيها الحدود بالشُّبهات حتى لا يسجن الإبداع في قفص اللغة، أو يستحيل النقد إلى ملاحقات لغوية متتابعة، ومرورًا بالموسيقى الشعريَّة التي انتحى فيها منحى سلفيًّا يقيِّد الشعراء بسلاسل الخليل، وقضية القديم والجديد التي تحرَّر فيها من إسار النظرة الجامدة، فأعطى المحدثين كل الحق في التعبير عن أنفسهم، وقضية اللفظ والمعنى التي خلصها من هذا الفصل الرديء بين جسم الكلمة وروحها، وقضية السرقات الأدبية التي تعامل معها تعاملاً فاهمًا، يأبَى الانخراط في تلك الملاحقات غير المنصفة والاتهامات المغرضة، وقضية الفن والأخلاق التي كانت له فيها رؤية شخصية تقوم على احترام الدِّين ووجوب الالتزام له، ورؤية نقديَّة تأبَى أن يكون الالتزام حكمًا على الفن، وإنَّما يحاكم الإبداع إلى التقاليد الفنية وحدها، وانتهاءً بالبناء الداخلي للقصيدة حتى تنبعث في الشعر الحياة بما في التجربة من معاناة، وبما في الصياغة من تخييل، وبما في الأفكار من تماسك، وبما في الرؤية من إثارة فنية، وهى قضايا حرص فيها ابن جنِّي على الرؤية النقديَّة الفاهمة، أغلب الأمر، مما يجعلنا لا نتردد في وصفه بأنَّه ناقد، وفى وضعه في مصافّ كبار النقاد.

(14) ملأ فسر ابن جنِّي الدنيا وشغل الناس، فأصبح محورًا لدراسات نقديَّة واسعة؛ كان من نتاجها ثمانية كتب دارت حول نقده، ناهيك عن تاسع مفقود، وقد تنوعت مصنفاتهم شمولاً أو اقتضابًا، عفَّة في العبارة أو قسوة فيها، إنصافًا في الرؤية أو تجنيًّا فيها، وابن جنِّي وناقدوه في النهاية جميعًا بشر يؤخذ ويُرد من أقوالهم، لأنَّ الكلمة الأخيرة في العلم لم تقل بعد، وأظنها لن تقال.

وللباحث بعد هذه النتائج عدة توصيات منها:

1 – أنْ تشكَّل لجنة علمية لتحقيق (الفسر) لابن جنِّي تحقيقًا يتناسب مع عبقرية الرجل وأهمية شرحه، لأنَّ التحقيق الذي لم يكتمل، والذي اضطَّلَعَ به محقِّق عراقيّ قد شوَّه الكتاب بصورة مُزْرية، مما يجعلنا ننفيه ونطلب له بديلاً مكتملاً، وليت الجامعة أو الدولة تستقدم للباحث مخطوطات الكتاب من كل أنحاء العالم ليضطَّلع بهذه المهمة التي هي من أكبر أهدافه.

2 – أنْ يقوم الباحثون الذين نالوا درجات علمية على تحقيقهم كتب التراث بطباعة رسائلهم وتوفيرها بين يدى خالفيهم، لأنَّه لا قيمة لتحقيق تنتقل به المخطوطة من دار الكتب إلى مكتبة الرسائل الجامعية فحسب، ثم لا يدري الباحثون شيئًا عنها هنا وهناك، ومن هذه الكتب فيما يتعلق بموضوعنا: التنبيه على شرح مشكلات الحماسة؛ لابن جنى، وقشر القَسْر؛ للزوزني.

3 – أن يُعيد كثير من المحققين النظر في عناوين الكتب التي حقَّقوها على ضوء ما ذكره الباحث من آراء حول عناوين تلك الكتب؛ خاصة: الفتح الوهبي على مشكلات المتنبِّي؛ لابن جنِّي، والفتح على أبى الفتح؛ لابن فورجة، وشرح الزوزني لديوان المتنبِّي... والتي أثبت فيها الباحث بشتَّى الأدلة فساد تلك العناوين، وأكَّد عناوين أخرى تنطق بها محتويات تلك الكتب، وتؤيدها كتب التراجم.

4 – ألا يغفل المؤرخون للنقد الأدبيّ – خاصة في القرن الرابع الهجريّ، وبالأخص المتحدثون عن الحركة النقديَّة حول شعر المتنبِّي – صفحة جهد ابن جنِّي؛ ذلك الجهد المتشعِّب الذي امتد إلى مساحات مترامية، وكان محورًا لدراسات جليلة، وجهود غير قليلة.

5 – أن يوضع معجم تاريخيّ لتفسير شعر المتنبِّي؛ بحيث يذكر البيت، ثم يدل المعجم على كل ما قيل في تفسيره في القديم والحديث مطبوعًا أو مخطوطًا، حتى يسهل ذلك الطريق أمام الباحثين في شعر المتنبِّي.

وبعد...

فلا يسع الباحث بعد هذا الجهد إلاّ أن يقدِّم خلاصة جهده لقارئيه آملاً أن يكون بحثه هذا علامة على طريق درس ابن جنِّي والمتنبِّي في آنٍ معًا، وإلاّ أنْ يدعو ربه طالبًا القبول، وحُسن التوفيق لما يحبه ويرضاه.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:15].

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين

بقلم/ **مصطفى محمد رزق السواحليّ**

المعيد بكلية اللغة العربية بالقاهرة

غرة ربيع الأول 1418 هـ

6 من يوليو 1997م

obeikandl.com